بُنَاة دَوْلَةِ الإسْلام

- ٤٧ -

المُثَنّى بن حَارِثَةَ الشَّيْبَانيُّ

رضي الله عنه

شَيْبَانُ بَطْنٌ مِنْ بَكْرٍ، وَكَانَتْ قَبِيلَةُ بَكْرٍ تُجَاوِرُ عَبْدَ قَيْسٍ ، وَتَنْتَشِرُ فِي شَرْقِيِّ جَزِيرَةِ العَرَبِ فِي القِسْمِ الشَّمَالِيِّ مِنْ ذَلِكَ الجُزْءِ، فِي الإِحْسَاءِ وَإِلَى الشَّمَالِ مِنْهَا إِلَى مَا يُعْرَفُ بالكُوَيْتِ اليَوْمَ، وَإِلَى بَعْض جُيُوبِ العِرَاقِ ، وَكَانَتْ شَيْبَانُ آخِرَ بُطُونِ بَكْرٍ شَمَالاً وَتَنْتَقِلُ فِي بَعضِ السَّوَادِ، وَرُبَّمَا نَذْكُرُ هَانِىءَ بنَ مَسْعُودٍ الشَّيْبَانِيَّ وَمَعْرَكَةَ ذِي قَارٍ قَبْلَ الإِسْلاَمِ .

وَوَصَلَتْ أَخْبَارُ رَسُولِ اللَّه ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَدَوْلَةِ الإِسْلاَمِ إِلَى بَنِي شَيْبَانَ فَجَاءَ المُثَنَّى بنُ حَارِثَةَ الشَّيْبَانِيُّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي السَّنَةِ التَّاسِعَةِ مِنَ الهِجْرَةِ وَأَسْلَمَ، فَأَكْرَمَهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَمَّرَهُ عَلَى قَوْمِهِ وَطَلَبَ مِنْهُ الدَّعْوَةَ بَيْنَهُمْ فَأَسْلَمَ أَخُوهُ المُعَنَّى بنُ حَارِثَةَ وَبَعْضُ أَفْرَادٍ مِنْ شَيْبَانَ. وَتُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ رَاضٍ عَنِ المُثَنَّى وَعَمَلِهِ.

وَتَوَلَّى الصِّدِّيقُ أَمْرَ المُسْلِمِينَ، وَارْتَدَّت العَرَبُ وَثَبَتَ المُثَنَّى وَمَنْ مَعَهُ، وَأَرْسَلَ الصِّدِّيقُ الجُيُوشَ إِلَى المُرْتَدِّينَ حَتَّى أَخْضَعُوهُمْ أَوْ قَضَوْا عَلَيْهِمْ، وَعِنْدَمَا انْتَهَى خَالِدُ بنُ الوَلِيدِ مِنْ أَمْرِ مُسَيْلَمَةَ الكَذَّابِ فِي اليَمَامَةِ أَمَرَهُ الصِّدِّيقُ أَنْ يَتَوَجَّهَ إِلَى العِرَاقِ وَأَنْ يَدْخُلَهَا مِنْ أَسْفَلَ، عَنْ طَرِيقِ الأُبُلَّةِ (كَانَتْ مَوْقِعَ البَصْرَةِ حَالِيًّا) ثُمَّ يَنْطَلِقُ بِاتِّجَاهِ الحِيرَةِ مَنْطِقَةَ المُثَنَّى، كَمَا أَرْسَلَ إِلَى المُثَنَّى أَنْ يَلْتَحِقَ بِجُنْدِ خَالِدٍ.

وَسَارَ خَالِدٌ وَوَاعَدَ أَفْرَادَ المُسْلِمِينَ فِي السَّوَادِ أَنْ يَجْتَمِعُوا فِي «الحَضِيرِ» ثُمَّ سَارُوا إِلَى (هُرْمُزَ) فَنَصَرَ اللَّهُ عِبَادَهُ المُؤْمِنِينَ وَقَتَلَ خَالِدُ بنُ الوَلِيدِ قَائِدَ الفُرْسِ هُرْمُزَ، وَهَرَبَ الفُرْسُ فَبَعَثَ خَالِدٌ المُثَنَّى فِي آثَارِ المُنْهَزِمِينَ. وَلَمَّا وَصَلَ المُثَنَّى إِلَى نَهْرِ المَرْأَةِ، وَاقْتَرَبَ مِنَ الحِصْنِ الَّذِيْ فِيْهِ المَرْأَةُ خَلَّفَ أَخَاهُ المُعَنَّى يُحَاصِرُ الحِصْنَ، وَمَضَى هُوَ إِلَى حِصْنِ الرَّجُلِ فَحَاصَرَهُ وَدَخَلَهُ عَنْوَةً، فَقَتَلَ المُقَاتِلَةَ وَجَمَعَ الأَمْوَالَ، وَلَمَّا وَصَلَ الخَبَرُ إِلَى المَرْأَةِ صَالَحَتِ المُثَنَّى وَأَسْلَمَتْ، وَتَزَوَّجَهَا المُعَنَّى.

وَاشْتَرَكَ المُثَنَّى فِي كُلِّ المَعَارِكِ الَّتِي دَارَتْ عَلَى أَرْضِ العِرَاقِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَحِلَ خَالِدٌ بِقِسْمٍ مِنْ جَيْشِهِ إِلَى الشَّامِ

لِدَعْمِ المُجَاهِدِينَ هُنَاكَ، وَأَبْلَى المُثَنَّى بَلاَءً حَسَنَاً فِي هَذِهِ الحُرُوبِ، وَأَبْدَى شَجَاعَةً فَائِقَةً، وَقَدَّمَ أَمْثِلَةً رَائِعَةً فِي البُطُولَةِ، وَذَاعَ صِيتُهُ، وَسَارَتِ الرُّكْبَانُ بِأَخْبَارِهِ وَوَصَلَتْ إِلَى الخَلِيفَة اِلصِّدِّيقِ، فكَانَ يَسْأَلُ عَنْهُ.

وَجَاءَتِ الأَوَامِرُ إِلَى خَالِدِ بنِ الوَلِيدِ بِالتَّحَرُّكِ إِلَى الشَّامِ بِقِسْمٍ مِنَ الجَيْشِ، وَتَرْكِ القِسْمِ البَاقِي بِإِمْرَةِ المُثَنَّى بنِ حَارِثَةَ، وَسَارَ خَالِد، وَنَظَرَ المُثَنَّى إِلَى مَنْ بَقِيَ عِنْدَهُ وَقَدْ ذَهَبَ صَنَادِيدُ المُسْلِمِينَ فَاسْتَضْعَفَهُمْ، وَخَافَ مِنْ غَدْرِ الفُرْسِ وَكَثْرَةِ عَدَدِهِمْ، فَكَتَبَ إِلَى الصِّدِّيقِ يَطْلُبُ مِنْهُ المَدَدَ، وَانْتَظَرَ وَلَمْ يَصِلِ الدَّعْمُ، وَاسْتَبْطَأَ الخَبَرَ، فَسَارَ بِنَفْسِهِ إِلَى المَدِينَةِ، فَوَجَدَهُ عَلَى فِرَاشِ المَوْتِ، وَقَدْ أَوْصَى عُمَرَ بِنَدْبِ النَّاسِ لِلْقِتَالِ فِي العِرَاقِ. ومَاتَ الصِّدِّيقُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَدُفِنَ، وَأَصْبَحَ عُمَرُ أَمِيراً لِلْمُؤْمِنِينَ فَحَثَّ النَّاسَ عَلَى الجِهَادِ، فَتَوانَوْا وَكَرَّرَ الحَثَّ فِي اليَوْمِ الثَّانِي وَالثَّالِثِ، وَتَكَلَّمَ المُثَنَّى وَأَخْبَرَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَى يَدِ خَالِدٍ، وَأَنَّ مُعْظَمَ السَّوَادِ اليَوْمَ بِيَدِ المُسْلِمِينَ، وَفِي اليَوْمِ الرَّابِعِ لَبَّى النِّدَاءَ أَبُو عُبَيْدِ بنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيُّ، وَكَانَ أَوَّلَ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا، لِذَا فَقَدْ أَمَّرَهُ الخَلِيفَةُ عَلَى مَنْ لَبَّى وَسَارَ، وَأَوْصَاهُ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَاسْتِشَارَةِ

أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

سَارَ أَبُو عُبَيْدٍ إِلَى العِرَاقِ، وَمَعَهُ المُثَنَّى، وَكَانَ الفُرْسُ قَدْ اسْتَقَرَّ رَأْيُهُمْ عَلَى مَوْضُوعِ الحُكْمِ، فَمَلَّكُوا بُورَانَ بِنْتَ كِسْرَى، الَّتِي فَوَّضَتْ بِدَوْرِهَا أَمْرَ المُلْكِ إِلَى رُسْتُمَ، فَأَرْسَلَ رُسْتُمُ جَيْشاً كَثِيفاً إِلَى المُسْلِمِينَ بِقِيَادَةِ (جَابَانَ) فَالْتَقَى الطَّرَفَانِ فِي مَوْضِعٍ يُقَالُ لَهُ «النَّمَارِقُ» بَيْنَ الحِيرَةِ والقَادِسِيَّةِ، وَكَانَ عَلَى خَيْلِ المُسْلِمِينَ المُثَنَّى بنُ حَارِثَةَ، وَنَصَرَ اللَّهُ عِبَادَهُ المُؤْمِنِينَ وَهَزَمَ الكَافِرِينَ، وَقَدْ أُسِرَ فِي المَعْرَكَةِ قَادَةُ الفُرْسِ (جَابَانُ وَمَرْدَانْشَاه)، وَلاَحَقَهُمْ أَبُو عُبَيْدٍ وَانْتَصَرَ عَلَيْهِمْ ثَانِيَةً. ثُمَّ أَرْسَلَ المُثَنَّى بنَ حَارِثَةَ إِلَى كُوَرِ تِلْكَ الجِهَاتِ فَفَتَحَهَا صُلْحاً وَقَهْراً.

أَرْسَلَ رُسْتُمُ جَيْشاً كَثِيفاً آخرَ فَالْتَقَى مَعَ المُسْلِمِينَ وبَيْنَهُمَا نَهْرٌ وَعَلَيْهِ جِسْرٌ، فَأَرْسَلُوا إِلَى المُسْلِمِينَ إِمَّا أَنْ تَعْبُرُوا إِلَيْنَا وَإِمَّا أَنْ نَعْبُرَ إِلَيْكُمْ، فَقَالَ المُسْلِمُونَ لأَمِيرِهِمْ أَبِي عُبَيْدٍ: مُرْهُمْ فَلْيَعْبُرُوا هُمْ إِلَيْنَا، فَقَالَ: مَا هُمْ بِأَجْرَأَ عَلَى المَوْتِ مِنَّا، ثُمَّ اقْتَحَمَ إِلَيْهِمْ، وَدَارَتِ المَعْرَكَةُ طَاحِنَةً، دَارَتْ عَلَى المُسْلِمِينَ فَقُتِلَ مِنْهُمْ مَا يَقْرُبُ مِنْ سِتَّةِ آلاَفٍ مِنْ أَصْلِ عَشْرَةِ آلاَفِ عَدَدِ جَيْشِ المُسْلِمِينَ، وَذَلِكَ أَنَّ خُيولَ المُسْلِمِينَ

كَانَتْ تَنْفُرُ مِنْ فِيلَةِ الفُرْسِ فَلاَ تُمَكِّنهُمْ مِنْ أَنْ يَحْمِلُوا عَلَى أَعْدَائِهِمْ. فَأَمَرَ أَبُو عُبَيْدٍ بِقَتْلِ الفِيلَةِ فَقَتَلُوهَا عَنْ آخِرِهَا، فَقَدَّمَ الفُرْسُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ فِيلاً أَبْيَضَ فَحَمَلَ عَلَيْهِ أَبُو عُبَيْدٍ فَضَرَبَهُ بِالسَّيْفِ فَقَطَعَ خُرْطُومَهُ، فَحَمِيَ الفِيلُ، وَخَبَطَ أَبَا عُبَيْدٍ بِرِجْلَيْهِ، وَتَوَالَى سَبْعَةُ قَادَةٍ مِنْ ثَقِيفٍ، قَتَلَهُمُ الفِيلُ كُلَّهُمْ حَتَّى آلَتِ القِيَادَةُ إِلَى المُثَنَّى بنِ حَارِثَةَ. وَكَانَ المُسْلِمُونَ قَدْ تَرَاجَعُوا وَأَخَذُوا يِمُرُّونَ عَلَى الجِسْرِ، فَانْكَسَرَ بَعْدَ أَنْ مَرَّتْ عَلَيْهِ جَمَاعَةٌ فَتَحَكَّمَ الفُرْسُ فِيمَنْ بَقِيَ فَعَمِلُوا فِيهِمْ قَتَلاً، فَرَمَى بَعْضُهُمْ نَفْسَهُ فِي الفُرَاتِ، فَغَرِقَ مَا يَقْرُبُ مِنْ أَرْبَعَةِ آلاَفٍ فِي النَّهْرِ.

سَارَ المُثَنَّى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَوَقَفَ عِنْدَ الجِسْرِ الَّذِيْ جَاءُوا مِنْهُ، وَنَادَى: أَيُّهَا النَّاسُ عَلَى هِينَتِكُمْ فَإِنِّي وَاقِفٌ عَلَى فَمِ الجِسْرِ، لاَ أُجُوزُهُ حَتَّى لاَ يَبْقَى مِنْكُمْ أَحَدُ هَا هُنَا. وَوَقَفَ يَحْمِي المُسْلِمِينَ مِنَ الفُرْسِ. وَانْظُرْ إِلَى رَجُلٍ يَتَصَدَّى لِجَيْشٍ كَامِلٍ مُنْتَصِرٍ يَحْمِي جُنْدَهُ وَيَتَحَمَّلُ مَسْؤُولِيَّةَ القِيَادَةِ. وَلَمَّا انْتَقَلَ النَّاسُ جَمِيعاً إِلَى النَّاحِيَةِ الأُخْرَى سَارَ المُثَنَّى فَنَزَلَ بِهِمْ أَوَّلَ مَنْزِلٍ، وَقَامَ يَحْرُسُهُمْ هُوَ وَغَيْرُهُ مِنَ الأَبْطَالِ، وَقَدْ جُرِحَ أَكْثَرُهُمْ وَأُثْخِنُوا، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ ذَهَبَ فِي البَرِّيَّةِ لاَ يَدْرِي أَيْنَ ذَهَبَ.

كَانَ الفُرْسُ قَدِ اخْتَلَفُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ عَلَى المُلْكِ، إِذْ خَلَعُوا رُسْتُمَ، ثُمَّ عَادُوا فَوَلُّوهُ وَأَضَافُوا إِلَيْهِ الفَيْرُزَانَ. أَمَّا جَيْشُ الفُرْسِ فِي مَعْرَكَةِ الجسْرِ فَقَدَ رَكِبُوا إِلَى المَدَائِنِ فَلَحِقَهُمُ المُثَنَّى فِي كَتِيبَةٍ مِنَ المُسْلِمِينَ، فَاعْتَرَضَ سَيْرَهُمْ أَمِيرَانِ مِنْ أُمَرَاءِ الفُرْسِ كَانَا فِي جُنْدٍ، فَأَسَرَهُمَا المُثَنَّى وَأَسَرَ مَعَهُمَا عَدَداً كَبِيراً ضَرَبَ أَعْنَاقَهُمْ إِرْهَاباً لِلْفُرْسِ. وَقَدْ فَعَلَ المُثَنَّى، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي مُلاَحَقَةِ العَدُوِّ تَقْلِيداً لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي مُلاَحَقَةِ قُرَيْشٍ إِثْرَ غَزْوَةِ أُحُدٍ، لاَحَقَهُمْ والمُسْلِمُونَ مُثْخَنُونَ بِالجِرَاحِ، وَكَانَتْ هَذِهِ المَعْرَكَةُ فِي شَعْبَانَ مِنَ السَّنَةِ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ بَعْدَ مَعْرَكَةِ اليَرْمُوكِ بِأَرْبَعِين يَوْماً.

أَرْسَلَ المُثَنَّى، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إِلَى مَنْ بِالعِرَاقِ مِنْ أُمَرَاءِ المُسْلِمِينَ يَسْتَمِدُّهُمْ، فَبَعَثُوا إِلَيْهِ بِالمَدَدِ، كَمَا بَعَثَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ بِمَدَدٍ كَثِيرٍ فِيهِمْ جَرِيرُ بنُ عَبْدِ اللَّهِ البَجَلِيُّ مَعَ قَوْمِهِ بَجِيلَةَ.

سَمِعَ الفُرْسُ بِكَثْرَةِ جُمُوعِ المُثَنَّى فَحَشَدُوا جَيْشاً ضَخْماً وَأَعْطُوا قِيَادَتَهُ لـ (مِهْرَانَ) فَالتَقَى الطَّرَفَانِ فِي مَكَانٍ يُقَالُ لَهُ (البُوَيْبُ) قُرْبَ الكُوفَةِ، وَبَيْنَهُمَا نَهْرُ الفُرَاتِ، فَقَالَ

الفُرْسُ: إِمَّا أَنْ تَعْبُرُوا إِلَيْنَا وَإِمَّا أَنْ نَعْبُرَ إِلَيْكُمْ. فَقَالَ المُثَنَّى: بَلِ اعْبُرُوا إِلَيْنَا، فَعَبَرَ الفُرْسُ، وَتَعَبَّأَ الجَمْعَانِ، وَذَلِكَ فِي رَمَضَانَ فَعَزَمَ المُثَنَّى عَلَى المُسْلِمِينَ فِي الفِطْرِ فَأَفْطَرُوا عَنْ آخِرِهِمْ لِيَكُونُوا أَقْوَى، وَحَثَّ المُثَنَّى النَّاسَ، وَقَالَ: إِنِّي مُكَبِّرٌ ثَلاَثَ تَكْبِيرَاتٍ فَتَهَيَّأُوا فَإِذَا كَبَّرْتُ الرَّابِعَةَ فَاحْمِلُوا، فَأَجَابُوا بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فَلَمَّا كَبَّرَ أَوَّلَ تَكْبِيرَةٍ حَمَلَ الفُرْسُ حَمْلَةً أَحْدَثَتْ اضْطِرَاباً فِي صُفُوفِ المُسْلِمِينَ، وَصَبَرَ المُسْلِمُونَ صَبْراً جَمِيلاً، وَلَمَّا رَأَى المُثَنَّى أَنَّ الحَرْبَ قَدْ طَالَتْ جَمَعَ بَعْضَ الأَبْطَالِ يَحْمُونَ ظَهْرَهُ، وَحَمَلَ عَلَى (مِهْرَانَ) حَتَّى أَزَالَهُ عَنْ مَوْضِعِهِ حَتَّى دَخَلَ المَيْمَنَةَ، وَلَكِنْ قَتَلَهُ بَعْضُ الرِّجَالِ، فَهُزِمَ الفُرْسُ بِمَقْتَلِ قَائِدِهِمْ. وَأَسْرَعَ المُثَنَّى إِلَى الجِسْرِ فَوَقَفَ عَلَيْهِ لِيَمْنَعَ الفُرْسَ مِنَ المُرُورِ عَلَيْهِ لِيَتَمَكَّنَ مِنْهُمُ المُسْلِمُونَ، فَرَكِبُوا أَكْتَافَهُمْ يَوْمَيْنِ فَيُقَالُ: إِنَّهُ قُتِلَ مِنْهُمْ وَغَرِقَ مَا يَقْرُبُ مِنْ مَائَةِ أَلْفٍ.

التَأَمَ أَمْرُ الفُرْسِ، وَوَصَلَ الخَبَرُ إِلَى أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ، فَأَرَادَ أَنْ يَسِيرَ إِلَى العِرَاقِ بِنَفْسِهِ دَعْماً لِلْمُثَنَّى غَيْرَ أَنَّهُ نَزَلَ بَعْدَئِذٍ عِنْدَ رَأْيِ الصَّحَابَةِ فَأَرْسَلَ سَعْدَ بنَ أَبِي وَقَّاصٍ، وَكَتَبَ إِلَى المُثَنَّى وَجَرِيرِ بنِ عَبْدِ اللَّهِ البَجَلِيِّ أَنْ يَتْبَعَا سَعْداً، وَأَنْ يَسْمَعَا لَهُ وَيُطِيعَا، وَلَمْ يَصِلْ سَعْدٌ إِلَى العِرَاقِ حَتَّى كَانَ جُرْحُ

الْمُثَنَّى الَّذِي أُصِيبَ بِهِ يَوْمَ الجِسْرِ قَدِ انْتَقَضَ عَلَيْهِ فَمَاتَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَلَمَّا وَصَلَ سَعْدٌ إِلَى الحِيرَةِ أُخْبِرَ بِذَلِكَ فَتَرَحَّمَ عَلَيْهِ وَدَعَا لَهُ. وَلَمَّا انْقَضَتْ عِدَّةُ زَوْجِ المُثَنَّى سَلْمَى بِنْتِ خَصفَةَ تَزَوَّجَهَا سَعْدٌ[1].

وَإِنَّ جِهَادَ المُثَنَّى، وَقِيَادَتَهُ، وَفُتُوحَاتِهِ لَتَجْعَلَهُ أَحَدَ بُنَاةِ دَوْلَةِ الإِسْلاَمِ.

(١) من العادات الحسنة التي سار عليها المسلمون أن يتزوج القائد زوجة القائد الذي استشهد، ولا تترك هكذا من غير زوج تشعر بالأسى تذكر الماضي والزوج الجديد الكفء هو الذي ينسيها ما فقدت. تزوج أبو بكر أسماء بنت عميس بعد أن استشهد زوجها جعفر بن أبي طالب في مؤته، وتزوجها علي بن أبي طالب بعد وفاة أبي بكر. وتزوج خالد بن سعيد أم حكيم بنت الحارث بعد أن استشهد زوجها عكرمة، وتزوجها عمر بن الخطاب بعد أن استشهد خالد. . . والأمثلة كثيرة.